علاقةُ قانون العلّيةِ بالدعاء في المنظور القرآني
دراسةٌ تفسيريةٌ

علي سلمان جبر
أ.م.د. ضرغام كريم كاظم الموسوي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

The relationship of the law of attic to supplication in the Qur'anic perspective explanatory study

Ali Salman Jebir
Asst.Dr.Prof. Dergham Karim Kazem AL-Mousawi
College of Islamic Sciences / University of Karbala
Email: Fyadh743@gmail.com

ملخص البحث

إنّ المتدبر في عالم الوجود يصل وبقناعة تامة، إنّ كل ما خلقه الله يسري طبق نظام وقانون دقيق أوجده الله في خلقه، وهذا ما ساقه القرآن الكريم وفي كثير من آياته، ومع ذلك كُله فالإنسان يباطل ، أو يشكك في خلقه بسبب نزعته العقائدية ، أو التعمد على عدم الفهم لكتاب الله، وبما أنّ الانسان يبحث عن الكمال في ذاته، كان له طرق ووسائط كثيرة في تغير حاله: فالدعاء، والصدقة، وصلة الرحم، والاستغفار وغيرها، هي أمور أذن بها الباري، في تغير حال الأنسان، كما دلّ عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ويمكن أن يجيب هذا الموضوع على عدة، إشكالات منها أصل وجود قانون العلية ، وأنّه لا يتعارض مع مفهوم الدعاء التي نطق به القرآن.

الكلمات المفتاحية: علاقة الدعاء، قانون العلّية، المنظور القرآني، تفسير، الفهم القرآني، علاقة طولية.

Abstract

The contemplator in the world of existence arrives with complete conviction, that everything that God created applies according to a precise system and law that God created in his creation, and this is what the Holy Qur'an and many of its verses have mentioned, with all of it, man delays or doubts his creation because of his ideological tendency or premeditation on Lack of understanding of the Book of God, and since man seeks perfection in himself, he had many ways and means to change his condition: supplication, charity, kinship ties, seeking forgiveness and others, are things that God authorized to change the human condition, as indicated by the Holy Qur'an and Sunnah. purified.

This topic can answer several problems, including the origin of the law of attic and that it does not contradict the concept of supplication that the Qur'an utters.

Keywords: the relationship of supplication, the law of causality, the Quranic perspective, interpretation, Quranic understand.ing, a longitudinal relationship.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله رب العالمين وأتم الصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وعلى أهل بيته أئمة الهدى وسادات البشر وأعلام الورى الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وبعد..

ممّا لا ريب فيه أنَّ لعلم التفسير تأثير كبير؛ وذلك لما يقدمه من أدوات يتكئ عليها المسترشد لفهم القرآن الكريم، وبيان معانيه الدقيقة، لما تضمنه من تعاليمٍ راقيةٍ ، وحِكَم وأحكام وقصص ومواعظ، فكان لابدَّ من الوقوف والتأمل لمعرفة مقاصده، عبر فهم معانيه ومعرفة مفرداته وتراكيبه، فأصبح علما مستقلًا واسعًا شموليًا، وأضحت جميع العلوم يُستعان بها على فهمه وبيانه، وتفسيره بقدر الطاقة البشرية.

أمّا خطة البحث: خرج البحث بمقدمة وأربعة مطالب تناولت في المطلب الأول: مفهوم الدعاء لغة واصطلاحًا ، وفي المطلب الثاني: حقيقة فضل الدعاء ، وأمّا المطلب الثالث: التوفيق بين قانون العلية والدعاء ، وجاء في المطلب الرابعة: الاشكالات التي وجهت للدعاء.

في حين جاءت الخاتمة حاملة لأهم ما رَشَحَ من نتائج البحث التي توصلت إليها في ضوء رحلتي البحثية ، وقائمة بأهم المراجع.

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين

توطئة :

جاء في الأثر الشريف عن رسول الله ﷺ: "إنّ الدعاء مخُّ العبادة"[1]، والله سبحانه

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، ط٤، نشر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع – قم – ايران، ١٣٦٤هـ، ٤/ ٣٠٥.

وتعالى يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، وبهذا يُعد الدعاء مدرسة تعليمية ترشدنا إلى حقيقة العبادة، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: "إنّ الدعاء هو العبادة"[2]، فالعبد حينما يمارس مراسيم الدعاء فقد ترجم ما يؤدي إلى عمق العلاقة والصلة بين الشخص وخالقه، كما "يعدّ الدعاء من أقوى الأسباب، وليس شيء من الأسباب أنفع منه ، ولا أبلغ في حصول المطلوب؛ لما ورد في فضله من آيات الكتاب، وصحيح الأثر"[3]؛ لذلك عُدَّ الدعاء من أهم سنن الانبياء واوصيائهم والائمة عليهم السلام، لمى ورد عنهم من الأدعية وفي جميع وقائع الحياة.

جاء في المواهب[4]، من الاشكاليات التي اثيرت حول الدعاء هو تحقق المعلول من غير علّة وهو محال.

ويرد عليه أنّ الدعاء لا ينافي قانون العلّية كما يشكل وإنّ هذه الامور والحوادث التي ترد على عالمنا مقدرة ومقتضيه أزلًا ولا تغيير ولا تبديل فلا معنى للدعاء.

وقبل بيان هذا الإشكال نبين مصطلحات هذه المسألة وهي:

المطلب الأول

الدعاء لغةً واصطلاحًا

اولًا : الدعاء لغة:

مصدر من دعا، قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "الدال والعين والحرف المعتل أصلٌ واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك تقول: دعوت أدعُو دعاءً"[5]،

(١) سورة الذاريات، الآية : ٥٦.

(٢) الكافي، الكليني ، ٢/ ٤٦٧.

(٣) الدعاء حقيقته، آدابه، آثاره، مركز الرسالة، ط١، مطبعة مهر – قم، نشر مركز الرسالة، قم – ايران، ١٤١٩هـ، ١٠٨.

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، ط٤، نشر مؤسسة المنار، ١٤١٣هـ، ٣/ ٦٤.

(٥) معجم المقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٧٩.

وقال ابن منظور (ت٧١١هـ): "الدُّعاءُ: الرَّغْبَةُ إلى الله عز وجلّ، دَعَاهُ دُعَاء"[١]، وعليه تكون أقرب معنى للإمالة والرغبة هو الطلب، بأن تتوجه الى الله في كل ما تحتاج من شؤونك الدنيوية والأخروية ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٢]، ومعنى الآية "أخبرهم بأني قريب منهم ليس بيني وبينهم حجاب، ولا ولي ولا شفيع يبلغني دعاءهم وعبادتهم، أو يشاركني في إجابتهم وإثابتهم، وأجيب دعوة من يدعوني بلا وساطة أحد إذا هو توجه إليّ وحدي في طلب حاجته، لأنني أنا الذي خلقته وأعلم ما توسوس به نفسه، والعارف بالشريعة وبسنن اللهّ في خلقه، لا يقصد بدعائه إلا هدايته إلى الأسباب التي توصله إلى تحصيل رغباته ونيل مقاصده"[٣]، فبإطلاق الكلام في الآية فإن العبد يدعوا وفي المقابل فإن الله سبحانه يستجيب.

ثانيًا : الدعاء اصطلاحًا:

قال الخطابي (ت٣٨٨هـ): "ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه العناية، واستمداده إياه المعونة، وإظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله وإضافة الجود والكرم إليه"[٤]، وقريب منه، قول الرازي: "الدعاء استدعاء العبد ربه جل جلاله العناية واستمداده إياه المعونة"[٥]، و"الدعاء من أقوى الأسباب في نجح المطلوب وأعظمها في نيل المقصود ، ومن أشد روابط القرب إلى المعبود ولا ينفك عنه الإنسان في جميع مراحله وأطواره، وجميع مراحل النشأة سواء بلسان الاستعداد والفطرة أم بلسان المقال، ولا يخلو كتاب إلهي من الحث عليه، وهو العبادة التي

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية : ١٨٦.
(٣) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ)، ط١، نشر مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ٢/ ٧٥.
(٤) شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، ط٣، نشر دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م ، ٤.
(٥) تفسير الرازي، الرازي، ٥/ ٨٣.

أمرنا بإتيانها والراغب عنه عُدَّ من المستكبرين عن رحمة الرحمن"[١]

من هذا يظهر للبحث إنّ أقرب المعاني في اللغة والاصطلاح للدعاء هو الطلب بحسب ما يتبادر من عملية الدعاء.

المطلب الثاني

حقيقة فضل الدعاء:

بما أنَّ الدعاء وسيلة اتصال العبد بربّه، من عالم الشهادة ، الملك إلى عالم الغيب الملكوتي فهو "من أهم الأسباب الطبيعية الاختيارية الواقعية لنجح المطلوب ونيل المقصود، فإنّه كما تترتب المسببات على الأسباب المقتضية لها، فإنّ قانون السببية الذي جعله الله تعالى وسيلة لتحقق المسببات الوجودية من دون أن يكون في البين فيض من الأسباب مستقلة من دون الله تعالى"[٢]، فكلها متجهة ومحتاجة لله سبحانه فهو موجد العلل في نظام خاص، وهذا ما يشعره الانسان في ذاته الباطني، فحينما يواجه الانسان حاجة من معتركات حياته ، فإنّه يتجه إلى الانقطاع لله تعالى والتوسل إليه في رفعها، كما حكى القرآن الكريم في من ركبوا السفينة وتعطلت بهم كيف انقطعوا إلى الله سبحانه في البحث عن منجى لهم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[٣]، قال السيد عبد الأعلى: "فحقيقة الدعاء هي الشعور الباطني في الإنسان بالصلة والارتباط بعالم لا مبدأ له ولا نهاية، ولا حد ولا غاية لسعة رحمته وقدرته وإحاطته بجميع ما سواه، فوق ما نتعقل من معنى السعة"[٤].

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، ط٤، نشر مؤسسة المنار، ١٤١٣هـ، ٣/ ٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٦٨.
(٣) سورة يونس، الآية : : ٢٢.
(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السبزواري، ٣/ ٦٧.

لذلك أمرنا الله تعالى به في موارد كثيرة في قرآنه الكريم الذي قال في فضله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[1]، فجعل الدعاء سبب لاعتناء الباري جلّ اسمه بخلقة ؛ "لأن الدعاء نوع من العبادة ومن أفضل أنواعها"[2]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[3]، فقد جاء في معنى الآية، "فإنه كفى فضلا في أنّه تعالى بنفسه الأقدس يجيب دعوة الداع من دون واسطة في البين"[4]، ويسند ذلك قول النبي ﷺ: "الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين ونور السماوات والأرض"[5]، إلى غيرها من الروايات التي تؤكد فضل الدعاء وآثاره الدنيوية والأخروية المنعكسة ايجابًا على حياة الناس جميعًا ؛ لأنّ "الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار"[6].

المطلب الثالث

التوفيق بين قانون العلّية والدعاء:

منَ الاشكاليات التي طالت مسألة الدعاء هي كيف نوفق بين نفوذ الدعاء وقانون العلّية، أي ما جرت عليه عادة البشر أنّهم يدعون الله كي يحصلوا على مكاسب وميزات مادية أفضل مما كانوا عليه، بتغير واقع حالهم الذي هم عليه، نحو الافضل، فإذا كان التغيّر متحققًا وفق ما عليه قانون العلّية، فإنّ الدعاء هو تحصيل حاصل، من التغيير، وإذا كان التغيير لا يسري على طبق قانون العلية، فهذا اسقاط لقانون العلّية ، وهو خلاف ما هو عليه الحال والواقع، فكيف يتم ذلك؟

وقد أجيب عليه بعدة أجوبة:

(١) سورة الفرقان، الآية : ٧٧.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ١٨/ ١١٩.
(٣) سورة البقرة، الآية : ١٨٦.
(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السبزواري، ٣/ ٦٤.
(٥) الكافي، الكليني، ٢/ ٤٦٨.
(٦) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ)، ط٤، مطبعة بيروت – نشر المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ، ٥١٩.

١- قال السيد عبد الاعلى السبزواري: "أن الدعاء لا ينافي قانون العلية والمعلولية ، أو سائر نواميس الطبيعة بل إنّه يكون سببا لتحقق المسبب المستند إلى سببه الخاص"[١].

٢- وقال السيد الخامنئي: إنّ قانون العلّية "هو أحد أسباب الخلقة وهو علة في سلسلة العلل والعوامل، فلا يتصور أحد أنّ الدعاء نقض لسلسلة العلة والمعلول ونقض لقانون العلّية في الخلق، كلا بل الدعاء في نفسه علّة، فهذا قانون جعله الخالق، فالذي جعل قانون الجاذبية الأرضية وقانون الذرّة، والقوانين المختلفة المترابطة بالحياة المادية، كذلك جعل قانون ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٢]، في سلسلة العلل والعوامل"[٣].

٣- وقال السيد الحيدري: "إنّ التغييرَ التابعَ للدعاء هو مفردة من مفردات قانون العلّية، بمعنى أنَّ الله تعالى قد جعل لكلّ مُسبَّبٍ سببًا فعليًا، ولكلّ معلول علّة حقيقية، والدعاء سبب وعلّة في التغيير، والتغيير مُسببٌ ومعلولٌ للدعاء، فلا معنى لتصوِّر الإشكال لأنّه ساقط من رأس، وعليه فقانون العلّية هو الحاكم في عالم الحسّ بأسره، ومفاد الدعاء مُندرج ضمن ذلك النظام، حيث جُعلت من فقراته توقُّف تغيير الحال على الدعاء، وهذا المعنى منسجم تمامًا مع قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٤].

كذلك "إنّ نظام العلّية نظام كلّي لا يختلف ولا يتخلف أبدًا، وإنَّ الدعاء طريق معرفي يُبصِّر الداعي بموارد تطبيق ذلك النظام، فمن الواضح جدًا أن لا يُجد مدّعٍ في العالم القديم والحديث يدَّعي الوقوف على التفصيلات التطبيقية لنظام العلّية والمعلولية، فنحن لا نُعدم بين الفينة والأُخرى اكتشاف سرٍّ جديدٍ يندرج ضمنَ نظام العلّية والمعلولية"[٥].

وعلى هذا فإنّ قانون العلّية لا يخرج عن الدعاء بشيء ولا الدعاء يخرج عنه؛ لأنّ الحاكم هو الله سبحانه، وهو يؤدي إلى الخلل بمشيئته وإرادته سبحانه ، أو الخلل في إدارته لنظام

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السبزواري، ٣/ ٦٩.
(٢) سورة غافر، الآية : ٦٠.
(٣) الدعاء، علي الخامنئي، ١٦.
(٤) سورة البقرة، الآية : ١٨٦.
(٥) الدعاء إشراقاته ومعطياته ابحاث كمال الحيدري، طلال الحسن، نشر مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام، (د ت)، ١٥٦.

العالم يجلّ الله عن ذلك، ولو قيل من باب التعريف بطرق قانون العلّية وجريانه أقرب للفهم، أو كما صورهُ بعض الفقهاء هو من باب الحكم الأولي والحكم الثانوي ، عند الاضطرار[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢]، فقد جاز للمضطر قال صاحب الأمثل: "ولمّا كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظاً لحياته، فقد استثنت الآية"[٣]، وبذلك يتحقق التوافق بينهما.

المطلب الرابع

من الاشكالات التي وجّهت للدعاء

إذا كان الدعاء مقتضٍ للإجابة لأنه علّة تامة وتماميتها متحققة من المقتضي أو السبب، والشرط، وعدم المانع، فلماذا ندعو الله سبحانه كثيرًا ولا يستجيب دعائنا، مع أنَّ عوالم خلق الله قائمة بين "توسط الأسباب بين الله سبحانه و بين مسبباتها حق لا مناص عنه"[٤]، وبما إنّ الدعاء لا ينافي قانون العلية[٥]، والله سبحانه يصرّح وفي كثير من آياته على ممارسة عبادة الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٨]، وهو بمثابه العقد الذي ابرمه الله تعالى مع مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٩]، وغيرها من الآيات التي وردت في هذا

(١) الدعاء إشراقاته ومعطياته، ١٥٨.
(٢) سورة البقرة، الآية : ١٧٣.
(٣) الامثل في تفسير كتاب الله المُنزَل، نَاصِر مَكارم الشِيرازي، ١/ ٤٨٦.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٢ / ٤٣
(٥) ينظر، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السبزواري، ٣/ ٦٩.
(٦) سورة غافر، الآية : ٦٠.
(٧) سورة النحل، الآية : ٦٩.
(٨) سورة البقرة، الآية : ١٨٦.
(٩) سورة البقرة، الآية : ٤٠.

المضمون، وكذلك ما وروي عن العترة الطاهرة عليهم السلام عن "أبي نصر البزنطي، عن كرام بن عمرو الخثعمي، عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد عليهما السلام يقولان: أنّ الله تعالى عوض الحسين عليه السلام من قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائريه جائيًا وراجعًا من عمره"[1]، روي عن "الوشاء، عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الدعاء يرد القضاء بعد ما ابرم إبراما ، فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ، ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله عز وجل إلا بالدعاء ، وإنّه ليس باب يكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه"[2].

وقد أُجيب عنهما:

الأولى: إنَّ الدعاء هو من قبيل المقتضي ، أو السبب الذي يقابل الشرط والمانع، "وأنّ المادة والجهد من قبيل المقتضيات لا العلل التامة ؛ و لذلك لا بّد من التوسل إليه والإفاضة منه بعد السعي والجد لتمهيد السبيل للنيل إلى المطلوب"[3]، الذي له المرونة في الانطباق على الدعاء وبدرجات مختلفة، على حسب الموانع والمشخصات فكما النار علة للإحراق بدرجة ١٠٠٪ بشرط إذا خليت من جميع الموانع، فتتفاوت كلما زادَ درجة المانع إلى أنّ تضمحل، فإذا كانت الخشبة بالماء واردتَ إشعالها فلا تجري عملية الاشتعال لوجود المانع، فكلما قلت الموانع والشروط مع وجود المقتضي تجري عملية الاشتعال، كذلك الدعاء يختلف من شخص لأخر كل حسب درجته فمقام الإمام المعصوم عليه السلام يختلف دعاءه عن الأولياء، والعلماء يختلف دعائهم عن الانسان العادي، إلى أنّ تتناقص وربّما تضمحل كما في دعاء العصاة والمتمردين إذا دعوا مثلًا [4].

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط١، نشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – قم، ١٤١٤هـ، ٣١٧.
(٢) الكافي، الكليني، ٢/ ٤٧٠.
(٣) مواهب الرحمان في تفسير القرآن، السبزواري، ٣/ ٦٨.
(٤) ينظر، تفسير الميزان، الطباطبائي، ٧/ ٩، كيفية تأثير الأدعية في تغير المقدرات التكوينية، مرتضى الحسيني الشيرازي، ط١، منشورات مؤسسة التقى الثقافية، ٢٠٢٠م، ١٢/ ١٣.

الاخر: يجب في استجابة الدعاء توفر شروط الدعاء لكي تتحقق الإجابة وهي كثيرة[1]، وفي مقدمتها معرفة الله جل شأنه كما في الخبر المروي "قال: حدثني موسى بن جعفر عليه السلام، قال: قال قوم للصادق عليه السلام: ندعو فلا يستجاب لنا، قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه"[2].

وملخص جواب الاشكال هو أنَّ الدعاء ليس هو العلّة التامة ليخرق قانون العلية بل هو من قبيل المقتضي أي حسب ما يقتضيه مشخصات الشخص نفسه ودرجة مقبوليته عند الله سبحانه بتوفر جميع شروط الدعاء، فإنّ الله سبحانه سوف يستجيب دعاءه ؛ لوقوع الدعاء ضمن نظام الله تعالى وليس هو خرق لقانون العلية.

تفريع

مما أُلحِقَ بموضوع الدعاء من المواضيع التي لها من الوساطة والصلة في تغيير واقع حال الإنسان، لما لها من الأثر البيِّن، فالصدقة وصلة الرحم والاستغفار والاحسان، وغيرها هي أمور أذن لها الباري جل ذكره في كتابه الكريم بوقوعها وقد أخبر بذلك، سواء كانت بنطقها الصريح ، أو على لسان المعصوم عليه السلام، "فإنّه هو الذي قدر لنا أنّا إذا أقبلنا إليه ودعوناه، أو تقدمنا إليه بعمل صالح، غيَّر لنا، وبدَّل لنا مصيرنا"[3]، وهذه المواضيع انحدرت ضمن أُطر يسودها نظام وقانون من العلل والاسباب في عالم الوجود ، وهو قائمٌ بها، "الإخلاص في الدعاء وليس إبطالًا لسببية الأسباب الوجودية التي جعلها الله تعالى وسائل متوسطة بين الأشياء و بين حوائجها الوجودية لا عللًا فياضةً مستقلةً دون الله سبحانه"[4] ، وقد ذكرت هذه المواضيع ضمن آيات وأحاديث عديده عن أهل بيت عصمة الطهارة عليهم السلام، فعلى سبيل المثال: قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ

(١) ينظر، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣١١.
(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ٢٨٩.
(٣) القضاء والقدر في العلم والفلسفة الاسلامية، جعفر السبحاني، تعريب محمد هادي اليوسفي، ط٢، مطبعة دار الاضواء، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ١٢٧.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٢ / ٣٦.

الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيم ﴾[2]، فقد "قال أبو عبد الله عليه السلام: داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة فإنّها تفك من بين لحى سبعمائة شيطان ، وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن وهي تقع في يد الرب تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد العبد"[3].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[4]، في ما روي "عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن محمد بن عبيد الله قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي، من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة ويفعل الله ما يشاء"[5].

وهذه الوسائط تعددت قال الشيخ السبحاني: "ولا يختص ذلك بالدعاء، بل أنَّ كثيرًا من الأعمال الصالحة مثل صلة الأرحام، ومساعدة الضعفاء، والأخذ بيد الفقراء، لما يمحو به الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء"[6]، جاء في تفسير الرازي "أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة وفيه حثٌّ على الانقطاع إلى الله تعالى، ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ﴾[7]"[8].

إلى غيرها من الآيات والروايات التي تصرح وبشكل مباشر أنَّ هناك جملة من المشخصات التي تحدث انقلابًا في حياة الانسان إذا قام بها بحسب ما أذن له خالقها، وهي جارية ضمن قانونه تعالى لا تخلف فيها ولا تناقض ولا تؤثر على قانون العلّية بشيء، بل

(١) سورة التوبة، الآيتان : ١٠٣-١٠٤.
(٢) سورة الحديد، الآية : ١٨.
(٣) الكافي، الكليني، ٤/ ٣.
(٤) سورة النساء، الآية : ١.
(٥) الكافي، الكليني، ٢/ ١٥٠.
(٦) أضواء على عقائد الشيعة، ١١٥.
(٧) الكافي، الكليني، ٢/ ٤٧٠.
(٨) تفسير الفخر الرازي، الرازي، ١٩/ ٥٢.

هي جارية على طبق سننه الجارية ؛ لذلك "أعلن الاسلام أنَّ التقدير الإلهي يقبل التغيّر والتبديل، فعسى أنْ يكون الدعاء ، أو الصدقة ، أو الاحسان سببًا في تغيير قسم كبير من مقدراتنا، وأنَّ هذا التغيير أيضًا يكون من قضاء الله تعالى أيضًا، فإنّه هو الذي قدَّر لنا ، إنّا إذا أقبلنا إليه ودعوناه، أو تقدمنا إليه بعمل صالح، غيَّر لنا مقدراتنا، وبدَّل لنا مصائرنا"[1].

والاشكالات التي وجهت للدعاء هي نفسها تلاقي هذه الأمور، والجواب نفسه فلا تعارض مع قانون العلّية بل هما يجريان ضمن ما رسمهما الله سبحانه وتعالى.

تعقيب

من نافلة القول بعد ثبوت صلة الدعاء وما أُلحق به بقانون العلية، وهو أنَّهما يسيران ضمن قانون العلّية بما رسمهما خالقهما، على وفق نظام إلهي دقيق تنسج روابطه العلل والأسباب، ولإتمام البحث وبالوقوف على موضع التأثير التي تحدثها هذه الاشياء، فقد حكى القرآن الكريم، وأجاب على شيء يحدث فيه التغير والتبديل.

ذكرَ القرآن الكريم أنَّ هنالك أمرين يمكن أنْ يحدث فيهما التغيّر والتبديل، وهما الأجل المسمى (الأجل المحتوم)، و (الأجل)، وملخص القول فيهما.

قد استعمل القرآن الكريم الأجل المسمى (٢١مرة)[2]، وفي مواضع مختلفة، منها، قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[3]، والأجل المسمى هو مدة بقاء الانسان من ولادته إلى حين موته[4]، قال الطباطبائي: "أنَّ المقضي هو مدة حياة الإنسان الطبيعية أي ما يقتضيه جسمه مِن دون تأثير العوامل الخارجية، والمسمّى هو مدّة حياته مع تأثرها بجميع العوامل والأسباب، ولو كانت خفية علينا فهي التي لا تتغير ولا يعلمها إلا الله بخلاف الأولى، فإنها قد تتغير بسبب

(١) أضواء على عقائد الشيعة، ١٢٨.

(٢) تفسير النور، محسن قرائتي، ترجمة حسين صافي ومحمد حسن زراقط، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ٢/ ٤٨١.

(٣) سورة الانعام، الآية : ٢.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي، ٤/ ٤٢٣.

العوامل الخارجية"[١]، والأولى هو الأجل قال صاحب الأمثل: "أجل، وحدها تعني غير الحتمي من العمر والوقت والمدّة"[٢].

بذلك يختلف الأجل عن الأجل المسمى، "لا شك أنّ (الأجل المسمى) و(أجلا) في الآية مختلفتان في المعنى، أمّا اعتبار الإثنين بمعنىً واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمة (أجل) خاصّة مع ذكر القيد: (مسمى) في الثّاني، لذلك بحث المفسّرون كثيرًا في الاختلاف بين التعبيرين، والقرائن الموجودة في القرآن والرّوايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام"[٣].

من هنا يظهر للبحث أنَّ هنالك أجلين، أجل المسمى أو الأجل المحتوم، والأجل، وأنَّ محل الحوادث والتغيّر هو الأجل[٤]، خلاف الأجل المسمى لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٥]، فالدعاء والصدقة وصلة الرحم وغيرها فإنّ محلها هو الأجل وليس هو الأجل المسمى.

نتائج البحث

١- إنّ مسألة الدعاء من المسائل المهمة التي أكد عليها القرآن الكريم وفي كثير من آياته، حيث جعلها مساوقه للعبادة.

٢- إن مسألة الدعاء تختص بالشخص المدعو فكلما كان المدعو مخلصًا كانت الاجابة أسرع، الى أن تضمحل كما هو الحال في العصاة والفجرة، وهذا الآذن قد نص عليه الله سبحانه وتعالى كما هو في كتابة الكريم.

٣- إنّ قانون العلّية لا يتعارض مع الدعاء بل هما مخلوقان من قبل الله سبحانه وتعالى، فإنّ الله سبحانه قد أذن للدعاء في التصرف في عالم الوجود المادي، بعلل قد تخفى على الناظر

(١) تفسير الميزان، الطباطبائي، ٧/ ١٠.
(٢) الأمثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل، نَاصِرِ مَكارم الشِيرازي، ٤/ ٢٠٦.
(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٢٠٦.
(٤) ينظر، تفسير الميزان، الطباطبائي، ٧/ ٤، الأمثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل، نَاصِرِ مَكارم الشِيرازي، ١٥/ ٣١٥.
(٥) سورة الاعراف، الآية : ٣٤.

مشاهدتها أو الحس بها وهذه العلل لا تخرم قانون العلية بشيء.

٤- إنّ الله سبحانه قد جعل الدعاء بمثابة العقد الذي ابرمه مع مخلوقاته بدليل قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

٥- إنّ هناك محل للحوادث الذي يكون فيه التغير هو الاجل والاجل المسمى كما صرح به القرآن الكريم، فالدعاء يقع في هذا القبيل وليس في قانون العلّية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة على خاتم النبيين محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

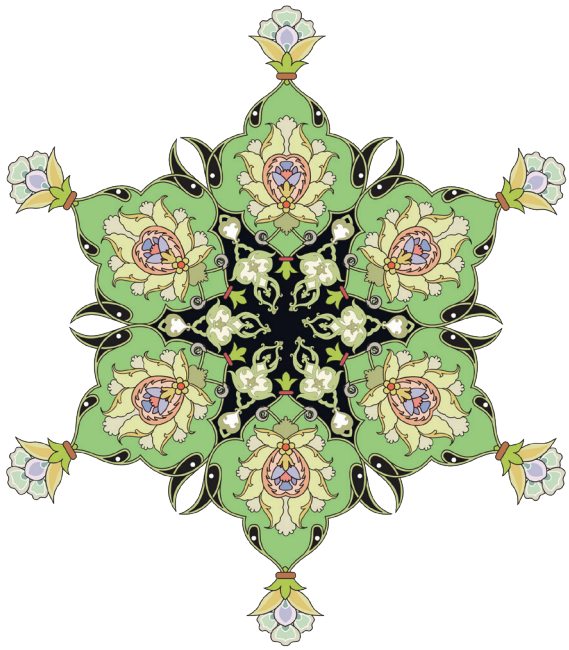

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أضواء على عقائد الشيعة، جعفر السبحاني، ط١ ، دار مشعر،١٤٢١هـ.

٣. الأمالي، الشيخ الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط١، نشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – قم، ١٤١٤هـ: ٣١٧.

٤. الأمثل في تفسر كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ط٢، مط دار احياء التراث العربي، (د ت).

٥. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ)، ط١، نشر مكتبة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

٦. تفسير النور، محسن قرائتي، ترجمة حسين صافي ومحمد حسن زراقط، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت –لبنان، ١٤٣٥هـ –٢٠١٤م

٧. تفسير مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق لجنة من العلماء المختصين والاخصائيين، ط١، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ –١٩٩٥م.

٨. التوحيد، الشيخ الصدوق، تحقيق: هاشم الحسيني، ناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٩. الدعاء حقيقته، آدابه، آثاره، مركز الرسالة، ط١، مطبعة مهر – قم، نشر مركز الرسالة، قم – ايران، ١٤١٩هـ.

١٠. الدعاء، علي الخامنئي، إعداد علي المسترشد، الناشر: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠١٠م.

١١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ.

١٢. شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ)، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، ط٣، نشر دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م.

١٣. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢هـ)، ط٤، مطبعة بيروت – نشر المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ: ٥١٩.

١٤. القضاء والقدر في العلم والفلسفة الاسلامية، جعفر السبحاني، تعريب محمد هادي اليوسفي، ط٢، مطبعة دار الاضواء، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م:

١٥. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩)، تح علي أكبر الغفاري، ط ٥، مط حيدري، نشر دار الكتب الإسلامية – طهران، (د ت).

١٦. كيفية تأثير الأدعية في تغير المقدرات التكوينية، مرتضى الحسيني الشيرازي، ط١، منشورات مؤسسة التقى الثقافية، ٢٠٢٠م.

١٧. لسان العرب، محمد ابن منظور (ت٧١١هـ)، ط٣، نشر دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ.

١٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة القاهرة، ج٢، الناشر، دار الفكر، ١٣٩٩ه.

١٩. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي، ط١، نش دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.

٢٠. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، ط٤، نشر مؤسسة المنار، ١٤١٣هـ.

٢١. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د ت).

٢٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، ط٤، نشر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم - ايران، ٣٦٤١هـ .

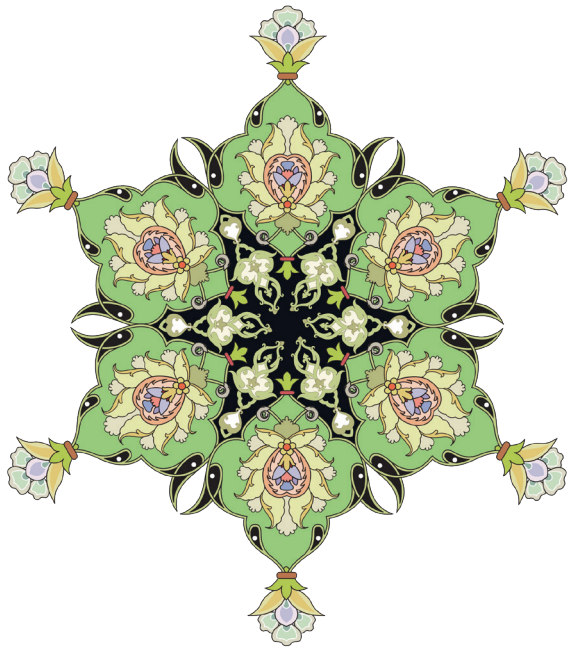

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ